الفصل الثالث

ترجمة محمد عبده

بدء حياته العامة: 1877 – 1888

عالم وصحفيك 1877 – 1882

«إنما خلقت لكي أكون معلمًا»

بهذا أجاب محمد عبده، عندما ألحوا عليه بعد سنوات قليلة من ذلك العهد، لقبول منصب آخر غير المنصب الذي اختاره لنفسه.

وفي الحق، إن الخطة التي اختطها في حياته العامة فيما بعد، والتي اتجهت إلى استخدام كل ناحية من نواحي نفوذه في بث آرائه، وفي تعليم الجمهور، تظهر في جلاء ووضوح، أن ميله إلى التربية والتعليم كان يملأ شغاف قلبه، وتدل على صدق اعتقاده في أنه لم يولد إلا لمثل هذه الحياة.

وفضلًا عن ذلك، فإن العلم الذي تلقاه على جمال الدين، وتلك الرغبة الملحة التي كانت تتأجج في صدره، لخدمة دينه ووطنه، كان منهما باعث آخر دفعه إلى الانكباب على تعليم الناس عقب فراغه من دور التحصيل. فأقبل في حماس على التدريس في الأزهر بعد حصوله على العالمية، وقرأ فيه

دروسًا في مواضيع كثيرة متنوعة، وأخذ في درس العقائد درسًا جديدًا على أساس البراهين القطعية التي أخذها عن جمال الدين.[92]

وكان إلى جانب هذا يقرأ في بيته دروسًا في الأخلاق والسياسة لطائفة من الطلاب الذين أقبلوا عليه، فقرأ لهم كتاب تهذيب الأخلاق لابن مسكويه (المتوفي سنة 1030م) وهو كتاب في الأخلاق، له قيمة عظيمة في الشرق إلى يومنا هذا. وحاضرهم أيضًا في علم السياسة، معتمدًا على كتاب «كيزو في تاريخ التمدن»، وكان كما أسلفنا قد نقل حديثًا إلى العربية.

وفي أواخر سنة 1878، توسط رياض باشا رئيس النظار لذلك العهد، في تعيين محمد عبده مدرسًا للتاريخ بمدرسة دار العلوم التي أنشأها علي باشا مبارك في سنة 1290 – 1873 حينما كان ناظرًا للمعارف في عهد الخديوي إسماعيل.[93]

---

[92] المنار ج8، ص404.

[93] انظر تاريخ ج3، ص242 — أما ميشيل وعبد الرازق فيقولان في مقدمتها ص28، أنها أنشئت سنة 1872، وذكر هورتن أنها أنشئت سنة 1871 (ج8، ص106)، وفولرز سنة 1870، انظر مادة «علي باشا مبارك»، في دائرة المعارف الإسلامية. وكان الغرض من إنشائها تخريج قضاة للمحاكم الشرعية، ومدرسين للمدارس الثانوية، ثم روى في سنة 1907، إنشاء مدرسة مستقلة للقضاء الشرعي، واقتصرت مهمة دار العلوم على تخريج المعلمين. انظر أيضًا ترجمة «علي باشا مبارك» في مشاهير الشرق، ج2، ص34 — 39.

كانت هذه المدرسة صورة من جهود أولئك الذين يئسوا من إصلاح الأزهر بإدخال بعض العلوم الحديثة في مناهجه، لتدريس إلى جانب ما كان يدرس فيه، حتى يخرج علماء أقرب إلى الحياة العملية العصرية.

وبدأ محمد عبده دروسه فيها، بمحاضرات في مقدمة ابن خلدون، الفيلسوف والمؤرخ العظيم المتوفي سنة 1406م، ولم يكن هذا النوع من الدرس بدء عهد جديد في مصر فحسب، بل كانت طريقة التدريس أيضًا مبتكرة، لا عهد للبلاد بها من قبل.

كان الأستاذ الشاب يبسط آراء المؤرخ العظيم في أسباب نهوض الأمم وسقوطها، وأصول الحضارة والعمران البشري، والاجتماع الإنساني، ثم يعقب عليها بآرائه الخاصة في الشئون السياسية والاجتماعية، تلك الآراء، التي كان يستقيها من المصنفات الحديثة، ثم يطبق هذا كله، بطريقة عملية على شئون أمته. [94]

وكان قد عين في الوقت نفسه، مدرسًا للعلوم العربية في مدرسة الألسن الخديوية، فجمع بين العمل فيها، وفي الأزهر، ودار العلوم. ووجه همه في درس العلوم العربية إلى

---

[94] المنار ج8، ص403 – 404.

تنقيح طرائق التدريس، التي كانت سائدة حينذاك، والتي كان قد أدرك ما فيها من عيوب كما ذكرنا ذلك من قبل.

وفي الحق، لقد كان في تدريسه يجعل الإصلاح دائمًا نصب عينيه، وكانت الغاية التي يرمى إليها، «إيجاد نابتة من المصريين تحيي اللغة العربية والعلوم الإسلامية، وتقوم عوج الحكومة».[95]

وتذكرنا هذه الإشارة إلى تقويم الحكومة بروح السخط العميق، الذي كان فاشيًا بين طبقات المتعلمين في ذلك العهد؛ لأنهم رأوا حكومتهم قد أخذها الوهن، وعظم فيها سلطان الأجانب بتدخلهم في تنظيم مالية البلاد.

ومن المهم أن نشير هنا إلى أن محمد عبده كان يرى التعليم وسيلة لإصلاح الأمور في المستقبل. وكان بإصراره على ضرورة تهذيب الأخلاق، وبتدريسه لأصول الحكم، قد أخذ في إنفاذ هذه المهمة بشكل عملي.

ولكن سرعان ما انقطع عمله في التدريس ففي 25 يونيه سنة 1879، تنازل الخديوي إسماعيل إلى ابنه توفيق باشا. ونفى هذا جمال الدين من مصر، وأقال محمد عبده من دار العلوم ومدرسة الألسن، وأمره بالاعتكاف في قريته

---

[95] المنار ج8، ص404.

«مجلة نصر»، على ألا يبارحها، وبهذا خابت الآمال التي عقدت على اتباعه سياسة إصلاحية حرة، كان قد شجعها قبل توليه بأعماله ووعوده.[96]

كان ذلك في سبتمبر سنة 1879. ويظهر أن ما أصاب محمد عبده، كان نتيجة لصلاته المشهورة بجمال الدين، ولآرائه الطريفة في الدين والسياسة، تلك الآراء التي بشر بها في تدريسه وأذاعها فيما كتبه في الصحف.[97]

لم يكن رياض باشا ناظر النظار الحر موجودًا في البلاد حينذاك، فلما عاد إليها بعد ذلك[98] كان محمد عبده أحد ثلاثة عينهم في سبتمبر سنة 1880 لتحرير الوقائع المصرية؛ وهي لسان الحكومة الرسمي، وبعد زمن قصير أسند إليه رئاسة التحرير، وأذن له في أن يشرك معه بعض المحررين، وكانوا مثله من تلاميذ جمال الدين الذين درب أقلامهم على الإنشاء والتحرير، وقرءوا عليه وعطفوا على أغراضه.

وهؤلاء المحررون هم: الشيخ عبد الكريم سلمان، صديق محمد عبده ونصيره، والشيخ سعد زغلول الذي كان يومئذ

---

[96] انظر التعليل الممكن لهذا العمل في ص9، هامش 2.

[97] المنار جـ8، ص405 – تشير رواية التاريخ جـ3، ص82، إلى شبه واتهامات وجهت إلى محمد عبده وأنصاره «أبطال النهضة الفكرية» وهي تضع في فهم القارئ أن الأزهريين هم الذين افتعلوها.

[98] تاريخ جـ3، ص161 و 169.

طالبًا في الأزهر في نحو الحادية والعشرين من سنة، والذي أصبح فيما بعد الزعيم الوطني للحركة السياسية الاستقلالية في مصر، ولسانها الناطق. ثم الشيخ سيد وفا. [99]

كانت الوقائع المصرية في الوقت الذي عين فيه محمد عبده محررًا أول لها، عبارة عن «إعلانات رسمية مع بعض أخبار إدارية ووقائع محلية». غير أن محررها الجديد بادر إلى إصلاحها وتوسيع ميدان نفوذها. فاقترح لائحة لإدارة المطبوعات التي كانت تشرف على جميع المطبوعات ومن بينها الجريدة الرسمية. ووافق عليها رياض باشا وأنفذها. وكان من أحكامها: أن جميع إدارات الحكومة ومصالحها، وكذلك المحاكم مكلفة بأن تعد للنشر في الجريدة الرسمية تقارير بأعمالها وقراراتها، وما أخذت في إنقاذه من المشاريع، وما ترى إنفاذه في المستقبل. [100]

وكان من حق رئيس التحرير أن ينقد ما يراه جديرًا بالنقد في هذه التقارير والأحكام. ولم يكن نقده قاصرًا على الشكل فقط، بل كان يتناول أيضًا أعمال المصالح المختلفة وقراراتها، وقد خلق مثل هذا النشر والنقد في قلوب

[99] المنار ج2 ، ص406 ، الذين اشتركوا مع جمال ومحمد عبده في عهد إسماعيل باشا غير هؤلاء ، هم إبراهيم بك اللقاني وحفني بك ناصف ومحمد بك صالح وسلطان أفندي محمد وغيرهم.

[100] المنار ج8، ص406 — 409 ، تاريخ ج3، ص240 — 241.

الموظفين نوعًا من الاهتمام الصادق؛ لأن النقد كان يصدر عن قلم رئيس التحرير، وهو في الواقع ترجمان الحكومة المعبر عن آرائها، فأدى هذا إلى الإصلاح في أعمال المصالح المختلفة شيئًا فشيئًا.

وكان يلح في ضرورة رفع مستوى التحرير في التقارير الرسمية، حتى اضطر كثير من رؤساء الكتاب على تلقي دروس في اللغة العربية، وأنشئت لذلك مدارس ليلية، لتعليم الكتاب، ومحرري الصحف، وتطوع محمد عبده لإلقاء دروس فيها.

وكان لرئيس التحرير، باعتباره مديرًا للمطبوعات حق المراقبة على الجرائد الوطنية والأجنبية التي تصدر في القطر المصري، وأن يتحرى حقيقة ما تقوله في رجال الحكومة وأعمالها، وكان من واجب الحكومة أن تحقق فيما تنسبه الصحف إلى الموظفين، وإذا تبين كذبه، كانت الصحيفة عرضة للإنذار، وإذا تكرر ذلك منها، فللحكومة أن تعطلها إلى أجل غير مسمى، أو إلى الأجل الذي تراه الإدارة.

وقد تشدد محمد عبده أيضًا، في ضرورة النهوض بالتحرير في الصحف العربية، حتى أنه أنذر مدير جريدة شهيرة بتعطيل جريدته إذا لم يختر لها محررًا صحيح العبارة

في مدة عينها، وبهذا استغل سلطة منصبه إلى حد ما، في تقدم النهضة الأدبية في مصر.

ومنذ اليوم الأول، وجه التفاته إلى حالة التعليم في البلاد، ونشر كثيرًا من المقالات نقد فيها المدارس، والمعلمين، وطرائق التدريس، وسياسة التعليم، وأظهر ما فيها من عجز وقصور. فكان من نتيجة هذا، أن أنشئ المجلس الأعلى للمعارف في 31 مارس سنة 1881، وانتخب الشيخ عبده عضوًا فيه، ثم اختير عضوًا في لجنة فرعية، ألفها المجلس للنظر في إصلاح طرق التعليم والتربية في جميع المدارس، وكان الكاتب العربي لجلساتها.[101]

وقد استفادت أيضًا من نصائحه وإرشاداته نظارة الأوقاف، كما استفاد منها كثير من المصالح الحكومية الأخرى.

ومع هذا، لم يقنع محمد عبده بقصر دائرة نفوذ الجريدة الرسمية، على مجال الدوائر الحكومية الضيق، مع عظم سلطانها عليها، فاتخذ ميدانًا أوسع لنشر آرائه وجهوده

[101] كان من قرارات المجلس الموافقة على اقتراح لمحمد عبده ، بأن تخصص الحكومة مبلغًا من المال تكافئ به المدارس الأجنبية على خدمتها للعلم. وكان طبيعيًّا أن تتلقى هذه المدارس ذلك بالسرور والقبول ، ولكن تبع هذه إجراء آخر ، يضع هذه المدارس تحت مراقبة الحكومة ؛ لأنها تتلقى منها الإعانة. وبرر هذا بضرورة إشراف الحكومة على التعليم في جميع المدارس أسوة بما تفعله جميع الدول من مراقبة وتفتيش المدارس التي تعينها من خزانتها ، وقد حالت الثورة العرابية دون تنفيذ الاقتراح (المنار ج8، ص410).

الإصلاحية، وذلك بأن أنشأ قسمًا أدبيًّا في الجريدة الرسمية، لينشر فيه ما يعن له ولأعوانه من الآراء في المسائل التي كانت تتصل بالمصلحة العامة، أو كان يجب أن تتصل بها، وزادت قلة الصحف في مصر شأن هذه الإدارة في تكييف الرأي العام.

وقد نشر محمد رشيد رضا في كتابه «تاريخ الأستاذ الإمام» ستة وثلاثين مقالًا، هي أهم ما كتبه محمد عبده في الوقائع المصرية،[102] وهي تتناول كثيرًا من النواحي في حياة البلاد، وتظهر شدة اهتمام كاتبها برقي أمته، وكيف أنه كان يرى أن يقيم نهضتها على أسس حقيقية ثابتة، بينما كان غيره يكثر من الكلام في الترقي والتقدم، ويسرف في محاكاة الأوروبيين وفي تقليدهم.

وقد أشرنا من قبل، إلى نقده لإدارة التعليم في المدارس، غير أنه لم يقتصر على النقد فحسب، بل عاود الكتابة في التعليم، المرة بعد المرة، وكان يرى أن النهوض بالأمة إلى مستوى أعلى من الثقافة والتربية، ليس بالأمر الهين كما كان يتصور بعض من كانوا يظنون أنفسهم

[102] تاريخ جـ2 ، ص68 — 228. نشر سبعًا وثلاثين مقالة ولكن إحداها وعنوانها «كلمة في السياسة» ليست من قلم محمد عبده ، ونسبت إليه خطأ ص 223 — 325 ، وتجد خلاصة هذه المقالات في مقدمة ميشيل وعبد الرزاق ، ص 30 — 32 ، وهورتن جـ13 ، ص89 — 91.

متعلمين، كان يرى أن الأمر ليس مجرد تحصيل شتات من العلوم الأوروبية أو محاكاة الأوروبيين في أحوال معيشتهم؛ وذلك لأنه عندما تفهم الغاية من التعليم على هذا الوجه تكون النتيجة في الغالب تقليد الأوروبيين في عاداتهم، ومبانيهم، وأزيائهم وأثاث بيوتهم، وكمالياتهم المترفة، فيفضي هذا إلى خلق روح، تغفل عن «الطريق المستقيم الموصل إلى المجد الحقيقي والشرف الذاتي».

أما هو، فكان يرى أن النهوض بالأمة، إنما يكون بسلوك السبيل التي ترفع الأفراد؛ فينبغي إذن أن تغير العادات شيئًا فشيئًا، وأن يبدأ بتغيير الأبسط والأسهل، وأهم واجبات الأمة، هو تهذيب الأخلاق، والعمل على سمو تفكير الناس وأفعالهم، وبغير هذا يستحيل الإصلاح، ولكن هذا عمل طويل في حاجة إلى زمان، وأول خطوة فيه هو إصلاح التعليم.

وقد عرض محمد عبده لتأثير التعليم في دين الطفل وعقيدته، فحذر الآباء من إرسال أبنائهم إلى مدارس يتولى التعليم والإدارة فيها معلمون على غير مذهبهم، أو على غير دينهم، إلا إذا كانوا مستعدين لرؤية أبنائهم، بعد كمال الرشد، وقد استبدلوا دينهم بدين معلميهم؛ لأنه لا مفر من

أن التعليم الديني للطفل، وهو صغير السن، يؤثر في تفكيره وفي أخلاقه، فإذا غير الطفل دينه، فليس للآباء إلا أن يلوموا أنفسهم.[103]

وكتب مقالًا في «العلم وتأثيره في الإرادة والاختيار»،[104] وآخر في «الملكات والعادات»،[105] وغيره في «التمدن»، وقد عاد فيه إلى الكلام على رأي البعض، ولا سيما الأغنياء، الذين كانت المدينة عنهم عبارة عن الإسراف والتبذير.[106]

وكتب مقالًا آخر عن عادات وأفعال الأمم التي تنشد الإصلاح، ذم فيه الرشوة، وتحسر؛ لأن العامة كانت تظنها الوسيلة لإنقاذ العدل، أو قضاء المصالح، حتى في أتفه الأمور».[107]

وتكلم عن الزواج، كضرورة من ضرورات النظام الاجتماعي، وسلم بما في تعدد الزواج من إساءة وإفساد لحياة الأسرة، وبين أن الشريعة الإسلامية، لما فرضت على الزوج

---

[103] انظر تأثير التعليم في الدين والعقيدة. تاريخ ج2، ص173.
[104] نفس المصدر، ص184 — 200.
[105] نفس المصدر، ص218.
[106] نفس المصدر، ص225.
[107] «وخامة الرشوة» مقالين تاريخ ج2، ص99، وما بعدها.

إقامة حدود اللّه في العدل بين زوجاته، إنما كان قصدها العملي، أن تشجع الاكتفاء بزوجة واحدة فقط.[108]

وقد كتب أيضًا مقالًا في إبطال البدع الدينية الضارة. والمنافية لروح الدين،[109] ومقالين عن الإسراف وجنون الإنفاق، وذكر أن الناس لا تعرف ما بين التبذير والفاقة من صلة وترابط، ثم قرر أن الفقر الحقيقي، إنما هو في نقص التربية وسوء التدبير.[110]

وعالج في طائفة ثالثة من المقالات، حياة الأمة السياسية، وبين فيها أن احترام قوانين البلاد من الضرورات اللازمة لسعادتها، وأن القوانين ينبغي أن تختلف باختلاف أحوال الأمم، وأن تتلاءم في أمة ما مع أفكار أهلها، وأن يراعي في وضعها أن تلائم درجة عقول الذين يراد وضعها لهم، حتى لا تكون مبهمة عليهم فلا يتيسر لهم فهمها، ولا معرفة الغرض منها.

وعروض لحكومة الشورى، فذكر أن كل تشريع يضعه ممثلو الأمة المختارون ينبغي أن يتفق تمام الاتفاق مع روح

---

[108] «حاجة الإنسان إلى الزواج» ص122 ، وما بعدها «حكم الشريعة في تعدد الزوجات» ص125 وما بعدها.

[109] «إبطال البدع من نظارة الأوقاف العمومية» تاريخ ج2 ، ص144 ، وما بعدها ، «إبطال الدوسة» مقالين ص147 وما بعدها.

[110] انظر حب النفس أو سفه الفلاح ثلاث مقالات ص74 وما بعدها ، وكذلك مقالة في «ما هو الفقر الحقيقي» ، ص103 ، وما بعدها.

الإسلام منذ نشأته، وأنه من واجب الرعية مناصحة الحكام بواسطة مندوبيهم، لم تجئ الشريعة بيان كيفية مخصوصة لمناصحة الحكام، فليس هناك ما يمنع من وضع نظام خاص يكفل تحقيق العدالة، والمصلحة العامة.[111] وأنه يجب على كل فرد أن يحب وطنه، وأن يحرص عليه ويحميه.

كان عجيبًا حقًّا، كما يقول محمد رشيد رضا. أن ترى رئيس تحرير الجريدة الرسمية، وهو شيخ أزهري، على رأسه عمامة، يجلس مجلس الحكم في حكومة استبدادية، شتان بين وسائلها ووسائل العلماء ورجال الدين، فينظر في أعمال الموظفين ويتناولها بالنقد، ويولي جهودهم شطر الإصلاح، ويعلم صحافة البلاد فضيلة الصدق، ويرفع مستواها الأدبي، ويعمل على تقويم أخلاق الأمة وعاداتها.

غير أن الحوادث كانت تعمل في خفاء، لتخلي بينه وبين عمله هذا، كما وضعت من قبل حدًّا لجهوده في سبيل التعليم.

ففي مايو سنة 1882، انقطعت صلاته بالوقائع المصرية بعد أن ظل فيها زهاء ثمانية عشر شهرًا.

---

[111] «احترام قوانين الحكومة وأوامرها من سعادة الأمة»، ص71 وما بعدها – «اختلاف القوانين باختلاف أحوال الأمم» ص167 وما بعدها – «الشورى والاستبداد»، ص203 وما بعدها ، انظر أيضًا مقالين آخرين في الشورى ص210 و 213.

وفي ذلك الوقت، كانت الحركة التي اقترنت باسم أحمد عرابي باشا، آخذة في سبيلها مجدة في سيرها، وكان غرابي باشا قد بلغ الغاية من القوة والسلطان.

بدأت في شكل احتجاج من الضباط المصريين في الجيش المصري[112] لتفضيل الضباط الأتراك الشراكسة عليهم،[113] ثم اتسعت الحركة وتطورت إلى ثورة على ما كان للأجانب من مركز ممتاز، ونفوذ قوي في شئون البلاد.

أما عرابي، الذي رقى إلى رتبة القائم مقام، ثم اختير وكيلًا للحربية، فناظرًا لها في 4 فبراير سنة 1882، في نظارة محمود باشا سامي، فقد أصبح بطلًا وطنيًّا، وأصبح الجيش هو الذي يعبر عن آمال البلاد.

وعندما سقطت النظارة في 26 مايو، كان من الأنسب أن يقلد عرابي نظارة الحربية مرة أخرى، ولكن الحوادث تطورت على غير ما تشتهي أحلام الاستقلال.

ففي 11 يونيه، شبت فتنة الإسكندرية؛ وفي 14 يوليو، أطلق الأسطول البريطاني قنابله على قلاعها؛ وفي 13 سبتمبر، انهزم الجيش المصري أمام القوات البريطانية في

---

[112] عبد الرزاق وميشيل ، ص30.

[113] في يناير سنة 1881 ، قدم الضباط الثلاثة عرابي وعلي فهمي وعبد العال احتجاجًا إلى ناظر الحربية عثمان رفقي باشا ، فاتخذت الإجراءات للقبض عليهم فتظاهر الجند في أول فبراير وخلصوهم بالقوة.

التل الكبير، وبعد يومين، وقع عرابي باشا في أسرها، ففشلت الحركة الوطنية فشلًا تامًّا، ثم حوكم زعماؤها في الحال، وحكم على عرابي بالإعدام، ثم خفف الحكم بالنفي إلى سيلان.[114]

ويبدو من هذا، أن العهد الذي قضاه الشيخ محمد عبده رئيسًا لتحرير الوقائع المصرية، كان متفقًا إلى حد كبير، مع تاريخ الحركة العرابية.

وكان مع زعامته للمطالبين بالتقدم والرقي، ودفاعه عن حكومة الشورى، لا باعتبارها مما يندب إليه، في بلد إسلامي كمصر، بل باعتبارها المثل الأعلى الذي ينبغي الكفاح في سبيل الوصول إليه، ومع اقتناعه بمساوئ التدخل الأجنبي،[115] كان مع هذه كله لا مفر له من أن يكون له في الحركة نصيب، قال في وصفه اللورد كرومر: «إنه كان لا شبهة في وطنيته ولا شك فيها».[116]

---

[114] انظر في مشاهير الشرق جـ1 ، ص211 — 213 ، رواية عرابي نفسه عن نصيبه من الحوادث وترجمة حياته ، وهي تفيد بعض الفائدة في فهم أغراض حركته في جملتها ، وقد سمح لعرابي بالعودة إلى وطنه في سنة 1901 ، وأقام في حلوان إلى أن توفي في سنة 1911.

[115] يروي المنار جـ8 ، ص412 — 415 أن محمد عبده كان بعد جمال الدين أول من دافع عن الحكم الشورى وتقييد سلطة الحكومة بالدستور ، ولكن كانت له في هذا تحفظات سنشير إليها فيما بعد وهي التي تميز مبدأه من مبدأ المتطرفين ، ويروي المصدر نفسه ص412 ، أن جمال ومحمد عبده كانا يخافان التدخل الأجنبي منذ أيام حكم إسماعيل باشا وأكثر من التنبيه إلى مخاطره في خطبها وكتابهما.

[116] مصر الحديثة ، جـ1 ، ص255.

وفي الحق إنه كان، كما قال اللورد كرومر، روحًا مدبرة للحركة. [117] ففي أدوارها الأولى، وقبل أن يلجأ الزعماء العسكريون إلى مقابض سيوفهم للوصول إلى أغراضهم، يظهر أنه كان يظن أن الوقت قد حان للبدء في تنفيذ خططه الإصلاحية الواسعة،[118] وأن يجعل من تلك الحركة خطوة إلى الأمام لتخليص البلاد من رق الأجانب،[119] وكان يظن عند ذاك أن الزعماء بعيدون عن الغرض الشخصي، وأنهم ينهجون نهج الإصلاح، وينشدون العدل والمساواة،[120] فحاول مخلصًا بكل قواه، أن يدير دفة الحركة، ولم يبخل قط بنصيحته على الزعماء، حتى ولو يريدوها منه.

وانتهز الفرصة التي أتيحت له في تحرير الوقائع المصرية، والإشراف على صحافة البلاد لينشئ رأيًا عامًّا متحدًا، وليشجع الأغراض المعقولة التي كان يرجو تحقيقها. [121]

[117] مصر الحديثة ، جـ2 ، ص179.

[118] تاريخ جـ3 ، ص156 – انظر ما ذكرته الصحف عند وفاة محمد عبده.

[119] نفس المصدر ، ص82.

[120] نفس المصدر ، ص53.

[121] يقول بلنت «التاريخ السري لمصر – طبعة نيويورك 1922 ، ص 117»: إنه بعد مظاهرة عرابي التي نجحت في إسقاط رياض وتقرير الحكم النيابي وإسناد النظارة إلى شريف باشا تحررت الصحافة تحت رقابة الشيخ عبده من القيوم القديمة أكثر من ذي قبل ونشطت في نشر الأخبار. ويشير مرة أخرى إلى اعتدال الصحافة أثناء رقابته عليها (ص 137).

وكان زعماء الحزب الذين التفوا حول عرابي باشا، ينظرون إلى الشيخ محمد عبده كمعلمهم وقائد أفكارهم، ويحلفون يمين الطاعة للوطن وما فيه نفعه بين يديه، حتى أنه اعتبر زعيمًا من زعماء الثورة، كعبد اللّه نديم وغيره من الزعماء المشهورين.[122]

وعندما توفي محمد عبده، كان الرأي العام كما مثلته صحافة ذلك العهد، مجمعًا على أنه كان متصلًا بالحركة، قوي النفوذ فيها، ونستطيع أن نجمل رأيها في الموضوع، بما ذكره الكثير من الصحف من أن أتباع عرابي كانوا لا يبرمون أمرًا دون استشارته فيه.[123]

على أنه وإن كان لا مجال للشك فيما كان له من زعامة في الحركة بوجه عام، ونفوذ قوي فيها، إلا أنه ينبغي علينا أن ننصفه، وأن نقرر ما ألح فيه محمد رشيد رضا وأكده مرارًا، من أن آراءه في كثير من الأمور الهامة، كانت تختلف عن آراء الزعماء العسكريين، وأن الخلاف ازداد بينهما لما تقدمت الحركة، حتى اضطر إلى نقد كثير من أعمالهم في كتاباته وخطبه وفي جداله معهم. وكان لا يوافق على وسائلهم، ولا

---

[122] تاريخ ج3، ص53، للوقوف على موقف زعماء الحزب. انظر الخطاب الذي أرسله محمد عبده إلى جمال الدين من بيوت (تاريخ ج2، ص528) فإنه يقول فيه: «وكانوا في بداية أمرهم أشد الناس تعصبًا عليك وعلى تلامذتك».

[123] المنار ج8، ص413 – انظر أيضًا مشاهير الشرق ج2، ص281، وتاريخ ج3، ص120 و169.

سيما التجاؤهم إلى القوة، ولم يكن مثلهم يتفاءل بحسن الخاتمة لما يفعلون.[124]

وقد وصف محمد رشيد رضا موقفه، في دقة وإيجاز، فقال:

«كان خصمًا للثورة العسكرية، وإن كان الروح المحركة للحركة العقلية».[125] ثم قال: «إن الشيخ عبده، كان في أول أمر هذه الثورة كارهًا لها، منددًا بزعمائها وهو بينهم؛ لأنه كان يعلم أنها تحبط عمله الذي مضى فيه، وكل إصلاح تعمله الحكومة أو تنويه، وأنها تمهد للأجانب سبيل الاستيلاء على البلاد».[126]

وكان ينتقد زعماء الثورة جهارًا، حتى أخذوه بالوعيد، وهددوه باستعمال العنف معه إذا لم يكف عن معارضتهم، وينطوي تحت لوائهم.[127]

---

[124] مقدمة عبد الرازق وميشيل ص33. يقول بلنت ص124: إن محمد عبده ومن ذهب مذهبه كانوا لا يوافقون على زج الجيش في السياسة في سبتمبر ، وكانوا في عزلة إلى حد ما وإن ابتهجوا بنتيجة ذلك التدخل.

[125] المنار ج8، ص467.

[126] نفس المصدر ، ص412. انظر أيضًا رواية بلنت التي يقول فيها: «إنني أعلم أن الشيخ محمد عبده وبقية أصدقائي الأزهريين لم يرضوا عن وسائل القوة ، وأن الإصلاحات التي ظلوا يدعون إليها طويلاً كانت في رأيهم يحتاج تحقيقها إلى زمن طويل» — تاريخ مصر السري ص120.

[127] يروي المنار ج8، ص413 ، أن عرابي أرسل مرة ضابطين إلى محمد عبده ليتهدداه. ويتفق مع هذه ما ذكر في التاريخ ج3، ص20 ، إذ يقول: «حتى كان ما كان من تلك الثورة العرابية فبذل (محمد عبده) جهده في إقناع أهلها بسوء عاقبتها حتى هموا بقتله.

ويدل على الخلاف في الرأي بين محمد عبده من ناحية، وبين عرابي باشا وشيعته من العسكريين من ناحية أخرى، ما دار بينهم من جدال في بيت طلبه باشا. «كان عرابي وأعوانه متفقين على أن الحكومة النيابية الدستورية، هي بلا جدال أصلح الحكومات للبلاد، وأن هذا التحويل قد آن في مصر أوانه، فعارض الأستاذ في ذلك وقال: «إن أول ما يجب أن يبدأ به التربية والتعليم، لتكوين رجال يقومون بأعمال الحكومة النيابية على بصيرة مؤيدة بالعزيمة، وحمل الحكومة على العدل والإصلاح. ومنه تعويدها الأهالي على البحث في المصالح العامة، واستشارتها إياهم في الأمر، بمجالس خاصة تنشأ في المديريات والمحافظات، وليس من الحكمة أن تعطي الرعية ما لم تستعد له، فذلك بمثابة تمكين القاصر من التصرف بماله قبل بلوغه سن الرشد، وكمال التربية المؤهلة والمعدة للتصرف المفيد، ولو كانت الأمة مستعدة لمشاركة الحكومة في إدارة شئونها، لما كان لطلب ذلك بالقوة العسكرية معنى. ثم قال إنه يخشى أن يجر هذا الشغب على البلاد احتلالًا أجنبيًّا. [128] وقد قال العرابي

[128] المنار ج8، ص413. تاريخ ج1، ص 146. عبد الرازق وميشيل ص33.

مرارًا كثيرة: «عليك بالهدوء والسكينة وأنا أضمن لك أكثر مما تطلب في بضع سنين».[129]

وفي مناسبة أخرى، عندما ألزمه زعماء الثورة حضور مجتمعهم، وأن يقوم فيهم خطيبًا، كان موضوع خطبته بيانًا تاريخيًّا جملته: «إن المعهود في سير الأمم وسنن الاجتماع أن القيام على الحكومات الاستبدادية، وتقييد سلطتها، وإلزامها الشورى والمساواة بين الرعية، إنما يكون من الطبقات الوسطى والدنيا، إذا فشا فيهم التعليم الصحيح والتربية النافعة، وصار لهم رأي عام، وأنه لم يعهد في أمة من أمم الأرض، أن الخواص والأغنياء ورجال الحكومة يطلبون مساواة أنفسهم بسائر الناس، وإزالة امتيازاتهم واستئثارهم بالحياة والوظائف، بمشاركة الطبقات الدنيا لهم في ذلك.

ثم قال لهم: «فكيف حصل في هذه المرة، ومن أهل هذا المجتمع؟ فهل تغيرت سنة اللّه في الخلق، وانقلب سير العالم الإنساني؟ أم بلغت فيكم الفضيلة حدًّا لم يبلغ إليه أحد من العالمين، حتى رضيتم واخترتم عن روية وبصيرة، أن تشاركوا سائر أمتكم في جاهكم ومجدكم، وتساووا الصعاليك حبًّا بالعدالة والإنسانية؟

[129] نفس المصدر ، ص416.

أم تسيرون إلى حيث لا تدرون، وتعملون ما لا تعملون؟[130]

كان محمد عبده، كما ذكرنا من قبل، من أنصار الحكم النيابي، ولكنه كان يعتقد أن هذا النوع من الحكم، ينبغي أن يقوم برضا الأمير وحكومته لا بالخروج عليه، وأن يكون في البداية من قبيل التمرين والتعويد، مقرونًا بالتربية والتعليم، إلى أن تبلغ النابتة الجديدة أشدها، وتصل من طريق الحكمة إلى رشدها.[131]

ومع هذا، فإنه لما قضت الحوادث بأن يختار إحدى اثنتين: إما الانضمام إلى المطالبين بالإصلاح، وإما الوقوف في صف أمير البلاد، وهو في الواقع صف التدخل الأجنبي، اختار الانحياز إلى جانبهم، بالرغم من أنه كان يخشى عاقبة أعمالهم.[132]

---

[130] المنار ج8، ص414 – 415.

[131] نفس المصدر ، ص415.

[132] المنار ج8، ص416 – يقول بلنت (ص145): لما قدمت فرنسا وانجلترا مذاكرتهما المشتركة في 8 يناير سنة 1882 ، وجد المصريون أنفسهم متحدين لأول مرة ، وانضم إلى المتطرفين منذ ذلك الحين الشيخ محمد عبده وغيره من الأزهريين الذين كانوا يدعون إلى الإصلاح في روية وأناة.

فلما فشلت الثورة، قبض عليه مع زعمائها، وسيقوا إلى المحاكمة، فحكم عليه بالنفي ثلاث سنين، بعد أن حبس ثلاثة أشهر، ومنع من العودة حتى تأذن له الحكومة بذلك. [133]

جرت المحاكمة في سبتمبر سنة 1882. [134] وقبل ختام ذلك العام، بارح محمد عبده ميممًا وجه شطر سوريا، لعله يجد فيها منزلًا ومأوى حتى يؤذن له بالعودة إلى بلاده.

وهكذا انتهت جهوده الأولى في إنهاض بلاده إلى الفشل واليأس المرير، وزاد في مرارة ما كان يلقى، أن فريقًا من أصدقائه الذين كان يركن إليهم، ويطمئن إلى صدورهم انقلبوا عليه خلال المحاكمة، وسعوا إلى الإيقاع به. ولكن الآمال العظيمة التي جاشت به نفسه منذ بداية عمله، لم تكن لتخبو نارها.

كتب إلى صديق له من السجن أثناء محاكمته، فبعد أن سرد التهم الباطلة التي أسندت إليه. قال: «إن الحوادث المريعة سوف تنسى. وإن هذا الشرف سوف يرد، ولئن أبت

---

[133] المنار ج8، ص416 – مقدمة عبد الرازق وميشيل ص34. ويقول مشاهير الشرق ج2، ص282، أنه نفى لأنه أفتى بعزل الخديوي توفيق باشا، ووردت نفس الرواية في كتاب التاريخ ج3، ص100، وربما استقاها من المصدر السابق. أما الجورنال دي كير (نفس المصدر، ص169) فروت أنه نشر الفتوى. ولم يحدد رشيد رضا في روايته السابقة تهمًا معينة أسندت إلى الإمام ولكنه يقول (تاريخ ج1، ص 266): إنه اتهم في الثورة بما هو برئ منه وتفنن المنافقون يومئذ بأخبار السوء عنه وتقديم تقارير السعاية فيه فسجن كزعماء الثورة وحوكم مثلهم بجريمة العصيان.

[134] تاريخ ج3، ص169.

طبيعية هذه الأرض بخستها، أن يكون لها من عوده نصيب، فليعودن في بلاد خير منها ولأجذبن إلى المجد أحبتي، ومن إلى المجد ينجذبون. كل ذلك إن عشت وساعدتني صحة الجسم، ولا أطلب شيئًا، فوق هذين، سوى معونة اللّه الذي عرفه بعض الناس، وبعضهم له منكرون». [135]

[135] تاريخ جـ2 ، ص526. نشر أيضًا في المنار ، جـ8 ، ص454. وفي تاريخ جـ1 ، ص267 وما بعدها.

العالم الثائر

أو

حياته في منفاه: 1882 – 1888

لما غادر محمد عبده مصر في أواخر سنة 1882، صحت عزيمته على الإقامة في سوريا إلى أن يؤذن له في العودة إلى وطنه. [136] ولكن بعد أن أقام نحو عام في بيروت، كتب إليه جمال الدين، وكان في باريس في أوائل سنة 1883، يدعوه للعمل معه فيما سماه «المسألة المصرية».[137]

فخرج من بيروت في أوائل سنة 1884، ولحق بأستاذه في باريس، حيث بقي نحو عشرة شهور ذهب خلالها مرة أو مرتين إلى بلاد الإنجليز، ليفاوض كبار الموظفين البريطانيين في أمور تتعلق بمصر والسودان، وكانا في موقف حرج بسبب فتنة المهدي. [138]

وأخذ الصديقان يعملان حينذاك على تنظيم جمعية العروة الوثقى السياسية السرية، التي أسساها لإثارة الرأي

---

[136] تاريخ جـ2 ، ص528 — 529 ، انظر الخطاب الذي أرسله من بيروت إلى جمال الدين وكان في باريس ، والخطاب غير مؤرخ ، ولكن يبدو أنه كتب بعد سفره من مصر بزمن وجيز.

[137] المنار جـ8 ، ص455.

[138] نفس المصدر ، ص10 — نقل المنار (جـ8 ، ص458 — 461) عن العروة الوثقى حديثًا دار بين محمد عبده واللورد هارنجتين وزير الحربية.

العام في جميع الأقطار الإسلامية، ودعوته إلى الاتحاد والتضافر. ثم أصدرا جريدة باسم الجمعية لتذيع دعوتها بين الناس.[139]

ولما تعطلت الجريدة افترق الصديقان، فذهب جمال إلى روسيا، وسافر محمد عبده إلى تونس في أواخر سنة 1884، حيث بقي مدة قصيرة، ثم رحل متنكرًا في كثير من الأقطار يدعو الناس إلى شد أزرهم، وإلى الالتفاف حول العروة الوثقى.[140]

ويسهل علينا إدراك السبب في نجاح تلك الجريدة، بالرغم من قصر حياتها، بالوقوف على ما كانت تردده دائمًا وتدعوه إليه.

كانت تبكي تأخر المسلمين وتدهورهم، وتدعوهم جميعًا إلى الاتحاد والتضافر تحت لواء دين واحد يظللهم جميعًا، كي يدفعوا عنهم ظلم حكامهم، وما يقع عليهم من مظالم الدول الأجنبية التي تخالفهم في الدين، ولكي يردوا إلى الإسلام المتحد المنصور، ما كان له من سؤدد ومجد.

---

[139] نفس المصدر ، ص10.

[140] المنار ج8 ، ص462. عبد الرازق وميشيل ص35. تاريخ ج1 ، ص390 وما بعدها ، يقرر المصدر الأخير أن محمد عبده دخل مصر متنكرًا ليتهيأ للسفر إلى السودان حيث كان ينتظر أن يلحق به جمال الدين إذا نجحت الأعمال التمهيدية. وكان غرضهما العمل في خفاء على تنظيم قوات المهدي ليتخذا منها أداة لتحرير مصر من الاحتلال.

وأحسنت العروة الوثقى صوغ دعوتها لإثارة كافة المسلمين، الذين آلمهم أن يروا أمم الإسلام وقد تفرق شملهم، وانشقت عصاهم، ودب فيهم دبيب التأخر والانحلال. وأجادت في التعبير عن دعوتها، في لغة عربية فصيحة عزت عن النظير.[141]

وسندلي إليك الآن بأهم ما كانت تدعو إليه، تقول:

إن الدين الإسلامي هو العروة الوثقى التي تجمع شتات المسلمين، وتنظم شملهم، وتمحو ما بينهم من تفاضل الأجناس والأقوام. جاءت شريعته وافية بوضع حدود المعاملات بين العباد، وبيان الحقوق، كليها وجزئيها، للحاكم والمحكوم، فقضت على فوارق الجنس وفواصله، ولم تدع مجالًا للمنافرة والتسابق.

ولو أن حاكمًا من حكام المسلمين، أخذ بالشريعة وامتثل لأحكامها وثابر على رعايتها، لأمكنه أن يجوز بسطة في الملك، وعظمة في السلطان، وأن ينال الغاية من رفعة الشأن في العالم الإسلامي أجمع؛ وذلك لأن الدين الإسلامي لم تكن وجهته كوجهة سائر الأديان إلى الآخرة فقط، ولكنه أتى بما فيه مصلحة العباد في دنياهم، وما يكسبهم السعادة في

---

[141] هورتن ج13، ص92 – 94.

الدنيا والتنعيم في الآخرة، وهو المعبر في الاصطلاح الشرعي بسعادة الدارين.[142]

وكان المسلمون، فيما سلف، إخوانًا متآلفين، يجمعهم لواء دولة واحدة عظيمة، وكانت بدائعهم في العلوم، والفلسفة، والآداب، وما زالت، مفخرة المسلمين كافة.[143] فواجب على كل مسلم أن يعمل على الاحتفاظ بقوة الإسلام، وأن يعيد إلى حكمه جميع الولايات التي كانت تحت سلطانه من قبل، ولا يجوز للمسلمين المسألة مع من يغالبهم في حال من الأحوال، حتى ينالوا الولاية خالصة لهم من دون غيرهم.[144]

«وكانت حال المسلمين على ما وصفنا، ولكن فرق شملهم ما بلى به أمراؤهم وحكامهم من الطمع والحرص على التعاظم، وتدهورت الأمم الإسلامية؛ لأن أمراءها انقلبوا مع الهوى، وضلت عنهم غايات المجد المؤثل، وقنعوا بألقاب الإمارة وأسماء السلطنة».[145]

---

[142] تاريخ جـ2 ، ص231 — 235 ، «الجنسية والديانة الإسلامية».

[143] نفس المصدر ، ص879 — 285.

[144] نفس المصدر ، ص250 وما بعدها ، «انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك» ، ص285. وما بعدها ، الوحدة والغلبة ، ص244 ، وما بعدها ، النصرانية والإسلام وأهلهما.

[145] تاريخ جـ2 ، ص282 ، الوحدة الإسلامية.

«وبدأ هذا الانحلال والضعف في روابط الملة الإسلامية عند انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة، وقتما قنع الخلفاء العباسيون باسم الخلافة، دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه في الدين والاجتهاد، كما كان الخلفاء الراشدون. كثرت بذلك المذاهب، وتشعب الخلاف من بداية القرن الثالث من الهجرة، ثم انثلمت وحدة الخلافة، فانقسمت إلى أقسام».[146]

«وها نحن نرى أمراء المسلمين اليوم، يطلقون أيدي الأجانب في شئون حكوماتهم، بل في بيوتهم، ويؤيدون حكم الأجنبي في أعناقهم».[147]

«وللإفرنج مطامع في ديار المسلمين، وهم يعملون لفصهم روابط الدين بينهم ليستغلوا ما ينشب بينهم من خلاف وشقاق. [148] والأجانب الذين تستخدمهم الحكومات الإسلامية، لا يتصلون بصاحب الملك في جنس ولا في دين، تقوم رابطته مقام الجنس، فهم لا يعبئون بشرف الأمة

[146] نفس المصدر ، ص253 ، انحطاط المسلمين وسكونهم.

[147] نفس المصدر ص283 ، الوحدة الإسلامية.

[148] نفس المصدر ، ص260 ، التعصب.

وسعادتها، ولكنهم يهتمون فقط بأجرهم ومنفعتهم الخاصة».[149]

أمم المسلمين اليوم غافلة عن مساعدة بعضها البعض؛ لأن كلًّا منها يجهل شئون الآخر.

وكان يجب على العلماء أن ينهضوا لإحياء الرابطة الدينية، بتمكين الاتفاق الذي يدعو إليه الدين، وأن يجعلوا معاقد هذا الاتفاق في مساجدهم ومدارسهم، حتى يكون كل مسجد، وكل مدرسة مهبطًا لروح حياة الوحدة، ولكن خواطرهم لم تتوجه إلى هذه الوسيلة، وهي أقرب الوسائل؛ لأن علماء كل قطر يجهلون حال العلماء في قطر آخر، ولأن ملوك المسلمين كانوا سببًا في إفساد العلماء.[150]

«وعلاج هذه العلل لا يكون بنشر الجرائد، إذ هي ضعيفة السلطان. وليس شفاؤها بإنشاء المدارس العمومية، دفعة واحدة على الطراز المعروف بأوروبا؛ لأن هذه المدارس وما يدرس بها من علوم، يمكن أن تتخذ وسيلة لتقوية النفوذ الأجنبي، ولا هو بالتعليم الأوروبي وتقليد العادات الإفرنجية، فلم ينجح التقليد إلا في إطفاء روح الناس، وإخضاعهم

[149] نفس المصدر ، ص299 ، رجال الدول وبطانة الملك.

[150] تاريخ ج2 ، ص251 ، 252 ، 254 ، انحطاط المسلمين وسكونهم – ص282 ، الوحدة.

لسلطان الأمم التي يقلدونها. فعلاجها الناجع إنما يكون برجوعها إلى قواعد دينها، والأخذ بأحكامها، على ما كان في بدايته في أيام الخلفاء. [151] فإذا قاموا بشئونهم، ووضعوا أقدامهم على طريق نجاحهم، وجعلوا أصول دينهم الحقة نصب أعينهم، فلا يعجزهم بعد أن يبلغوا بسيرهم منتهى الكمال الإنساني». [152]

وعلى المسلم أن يأخذ بيد أخيه، وأن ينظر إليه بما حكم اللّه في قوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ}، فيقيمون بالوحدة سدًّا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب.

ثم يقول الشيخ عبده:

«لا ألتمس بقولي هذا، أن يكون مالك الأمر في الجميع شخصًا واحدًا، فإن هذا ربما كان عسيرًا، ولكن أرجو أن يكون سلطان جميعهم القرآن، وجهة وحدتهم الدين، وكل ذي ملك على ملكه، يسعى بجهده لحفظ الآخر ما استطاع، فإن حياته بحياته وبقاءه ببقائه». [153]

---

[151] نفس المصدر ، ص235 وما بعدها ، ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها ، ص234 ، الجنسية والديانة الإسلامية.

[152] نفس المصدر ، ص243 ، ماضي الأمة وحاضرها وعلاج عللها.

[153] تاريخ جـ2 ، ص284 ، الوحدة الإسلامية ص285 وما بعدها الوحدة والغلبة. إذا كانت العروة الوثقى لم تدع إلى الاتحاد السياسي في حكم الممالك الإسلامية كما يؤخذ من مقالاتها التي حفظها لنا محمد رشيد رضا ، فإن

هذا وإذا كانت أمة من الأمم يحكمها حاكم مستبد، إرادته قانون، ومشيئته نظام، وجر عليها النكبات بتصرفه وأسقطها إلى مهاوي الخسران، فمن حق الناس أن يحرروا أنفسهم من حكمه، حتى لا يسري فساده إلى سائر الأمة.[154]

ويلوح لنا مما أجملنا بيانه، أن روح جريدة العروة الوثقى في تطرفها، وفي لهجتها التي لا تقبل تسامحًا، قد جاوزت الآراء التي كان يدعو إليها محمد عبده، في حياته الصحفية السابقة في مصر. فلا عجب أن ينظر الحكام المستبدون في بلاد الإسلام، وموظفو الحكومات ذات المصالح في تلك البلاد، بعين الإشفاق من استمرار ظهور العروة الوثقى، وأن يعملوا على تعطيلها.

وربما كان بعض السبب في تطرف مراميها، وحدة لهجتها، ما أفضت إليه الأحوال في مصر في العهد الأخير. فقد كان من آثار التدخل الأجنبي، نفي محمد عبده وجمال الدين، وقد حسبا أن الأمير المسلم وافق عليه وابتهج له.

محمد عبده يلح مع هذا في وجوب تأييد الخلافة العثمانية للإسلام ومدافعة عنه أنظر تاريخ ج2 ، ص339 — لوائح الإصلاح والتعليم الديني الأولى للمملكة العثمانية. وكذلك اللائحة الثانية في إصلاح سوريا نفس المصدر ، ص354.

[154] نفس المصدر ص330 ، 331 ، الأمة وسلطة الحاكم المستبد ، يظهر أن هذا المقال يعبر عن نزعات جمال الدين بنوع خاص.

على أن للأمر سببًا جوهريًّا آخر، هو أن محمد عبده كان خلال عهده بالتهييج السياسي، يأتم بزعامة جمال الدين، ويهتدي بهداه، وكان جمال ثوريًّا بطبيعته، بينما كان محمد عبده نفسه، يعتقد في صلاحية طريقة أخرى، أكثر هدوءًا، وإن كانت أبطأ فعلًا هي إصلاح وتعليم.

في الحق، إنه وافق مرة كما قال بلنت، على اصطناع القتل وسيلة لإنقاذ البلاد من حاكم متعب، ولكنه كان أيضًا حينذاك، متأثرًا بنفوذ جمال الدين القوي، قبل نفيه من مصر.

وفي الحق أيضًا، إنه بعد نحو عامين من فشل العروة الوثقى، ومفارقته الأخيرة لجمال، لا تزال تبدو دعوته القوية للجامعة الإسلامية في رسالتين كتبهما عن الإصلاح إحداهما إلى شيخ الإسلام في الآستانة، والثانية إلى والي بيروت.

وكان يرى «أن المحافظة على الدولة العثمانية ثالثة العقائد بعد الإيمان باللّه ورسوله، فإنها وحدها الحافظة لسلطان الدين، الكافلة ببقاء حوزته. يقول: وإنا وللّه الحمد على هذه العقيدة، عليها نحيا وعليها نموت».

ومن الخطأ أن يظن أن احترام الخلافة الإسلامية، ينهض على أية عاطفة أخرى غير عاطفة الدين. ومن ظن أن ينهض

على اسم الوطن، ومصلحة البلاد، وما شاكل ذلك، فقد ضل سوء السبيل.[155]

ويبدو سوء ظنه بالأجانب، ومقته لنفوذهم، في وصفه لهم «بشياطين الأجانب من فرنسا، وانجلترا، وألمانيا، وأمريكا، الذين أنشأوا مدارس أجنبية في البلاد الإسلامية، ليحاولوا هدم عقائد المسلمين، ويستميلوا أهواءهم نحو البلاد التي يمثلونها».[156]

ونحن إذا درسنا سيرة الشيخ عبده في جملتها، ووقفنا على الاتجاه العام لكتاباته، أيقنا بأنه كان حقًّا من المصلحين الذين يعتمدون، قبل كل شيء، على وسائل الإصلاح والتعليم، أكثر من اعتمادهم على وسائل الثورة والتهييج. وإذا حكمنا بأنه كان ثائرًا خلال الأدوار الأخيرة للحركة العرابية، فإن ذلك كان — كما قيل — لأن قوة الظروف جذبته إلى قبول وسائل لم يكن يوافق عليها، كما أن اشتراكه مع جمال في التهييج السياسي كان خضوعه فيه لاعتبارات السياسة ومراميها أكثر من رضائه بالوسائل والخطط، وكان

---

[155] تاريخ جـ2 ، ص339.

[156] نفس المصدر ، ص340 و359 و362. مثل هذا النفور من الأجانب معروف أيضًا بين المسيحيين في الشرق ويمكن أن نلحظ وجه الشبه بين قيام الشرق على الاستعمار في العصر الحاضر وبين العداوة للهيلينية والرومانية التي نشأت مع قيام الإمبراطورية الرومانية (وربما قبل ذلك بوقت طويل) وظهر أثرها في النهضات وفي تطور الطراز الوطني في العمارة والفنون الأخرى وفي العلوم والانقسامات الدينية إلخ. فروح الثورة كانت من أهم العوامل التي ساعدت على انتشار الإسلام في أوائل دعوته.

يشعر بأن الوصول إلى نفس النتائج مضمون إذا ذهبوا في طلبها مذهبًا أكثر هدوءًا، وأوفر أناة.

ويقول محمد رشيد رضا، إن ما جرى له ولشيخه مع توفيق باشا في مصر، أضعف أمله في الإصلاح السياسي، ووجه التفاته إلى الإصلاح القومي في التربية والتعليم،[157] فصارح جمال الدين في أوروبا، بأنه يرى أن الوسائل السياسية لن يرجى منها خير؛ لأن تأسيس حكومة إسلامية عادلة مصلحة، لا يتوقف على إزالة الموانع الأجنبية فقط، وأنه خير لهما لو عكفا على تربية أفراد على ما يحبون، في مكان هادئ بعيد؛ لا سلطان للسياسة فيه، ثم يذهب هؤلاء الرجال بدورهم إلى الأقطار المختلفة لتربية مثلهم على ما ربوا عليه، فيكون لهما في زمن قريب قوة هائلة من الرجال العاملين.

وكان محمد عبده يقول: «إن الرجال هم الذين يعملون كل شيء».[158]

---

[157] المنار جـ8، ص457. مشاهير الشرق جـ1 ، ص285 ، يقول إن جمال ومحمد عبده كان لهما غاية واحدة هي وحدة الإسلام وإصلاح حاله ولكنهما اختلفا في الوسائل التي تتخذ للوصول إلى هذه الغاية فكان جمال يرى أن الوسائل السياسية تكفل توحيد الممالك الإسلامية تحت حكومة إسلامية ، ولكن محمد عبده أدرك أن الوسائل السياسية لا تؤدي إلى النتائج المنشودة ولهذا جاهد في سبيل الوصول إليها بواسطة التعليم وتنزيه الدين وتطهيره وإعداد الأمم الإسلامية لكي تأخذ مكانها بين أمم العالم ونشاطرها رقيها ، هذا إلى أن نشاط جمال الدين العصبي كان يتطلب نتائج أسرع.

[158] المنار ، جـ8 ، ص457.

ولكن جمال الدين رفض هذا الرأي، وقال إنهم شرعوا في عمل، فلا بد من المضي فيه حتى يتم أو يعجزوا.

وليس من شك في أن الشيخ محمد عبده، كان يشير إلى زمن الفتنة العرابية عندما قرر في ترجمته لنفسه، بأنه كان يدعو الناس إلى التمييز بين ما للحكومة من حق الطاعة على الشعب، وما للشعب من حق العدالة على الحكومة.

يقول: «نعم. كنت فيمن دعا الأمة المصرية إلى معرفة حقها على حاكمها ... دعوناها إلى الاعتقاد بأن الحاكم، وإن وجبت طاعته، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم، وأنه لا يرده عن خطئه، ولا يقف طغيان شهوته، إلا نصح الأمة له بالقول والفعل».

ثم يقول: «وكدت أحقق بعض أغراضي، أما أمر الحكومة والمحكوم، فتركته للقدر يقدره، وليد اللّه بعد ذلك تدبره؛ لأنني قد عرفت أنها ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسه، وتقوم على تنميته السنين الطوال. فهذا الغراس هو الذي ينبغي أن يعنى به الآن».[159]

ولا شك في أن تجاربه في أوروبا، كان لها أثر في تكييف هذا الرأي. وعلى أية حال نجد أنه بعد عودته من منفاه، كان

---

[159] المنار ، ج8 ، ص893.

أكثر مسالمة للاحتلال عن ذي قبل، وأعظم ميلًا إلى نظام الحكومة؛ لأنه كما قال: «كان يقدر حريته حق قدرها».[160] ثم أصبح صديقًا حميمًا، وناصحًا صدوقًا، لمصطفى فهمي باشا الذي كان كبير النظار من سنة 1895 إلى سنة 1908.

وكان أيضًا صديقًا للورد كرومر يعتمد عليه ويثق بقه.[161]

وفي أوائل سنة 1885، أي بعد انقضاء عهد التهييج السري، رجع الشيخ عبده إلى بيروت، وترك جمال ليتم وحده العمل الذي واصله إلى آخر أيامه، فرحب به أصدقاؤه القدماء، وسرعان ما أصبح بيته كعبة للعلماء والطلاب «وعشاق المعارف من جميع الملل والطوائف»، ومما كان يقرأ عليه فيه السيرة النبوية.[162]

وارتجل دروسًا في التفسير في مسجدين من مساجد المدينة، وأقبل الناس من جميع المذاهب والملل على بيته. كان يجلس إليه السني، والشيعي، والدرزي، والنصراني، واليهودي، فانتهز الفرصة لنشر آرائه الدينية، وكان لطيفًا

---

[160] تاريخ ، جـ3 ، ص154.

[161] يقول اللورد كرومر: إنه كان رجلًا مستنير الرأي بعيد النظر ، اعترف بما لحكومة الشرق من سيئات وسلم بضرورة المعاونة الأوربية في الإصلاح ، انظر مصر الحديثة جـ2 ، ص179 – 181.

[162] المنار جـ8 ، ص463. اعتمد في محاضراته على السيرة النبوية لأحمد بن زيني دخلان المتوفي سنة 1886م. انظر بروكلمان. تاريخ الأدب العربي جـ2 ، ص500.

يوسع صدره مع الناس كلهم من غير تمييز ولا تفرقة. ولكنه لم يكن يقول غير ما يعتقد، سواء أكان القول في الدين، أم في العلم، أو العادات والأمور الاجتماعية، فاكتسب تقدير الجميع، وأدهش أهل الفضل بعلمه وأدبه وبلاغته.[163]

وفي ختام سنة 1885، دُعِي إلى التدريس في المدرسة السلطانية فأدخل كما كان شأنه في كافة أعماله، إصلاحات على إدارة المدرسة، وعدل منهج التدريس، وأضاف إليه دروسًا في التوحيد، والفقه، والتاريخ الإسلامي، والمنطق، والمعاني، والإنشاء.

وكانت دروسه تستغرق عامة النهار. وعنى عناية كبيرة بإنهاض الناحية الخلقية في المدرسة،[164] ومع هذا فقد وجد وقتًا للانشغال بالأدب. فترجم كتاب جمال الدين «الرد على الدهريين» من الفارسية على العربية، وأعد للنشر الدروس التي ألقاها على تلاميذه في شرح وتفسير كتابين مشهورين في البلاغة والأدب العربي، أحدهما كتاب نهج البلاغة[165] وهو

---

[163] نفس المصدر ، ص464.

[164] نفس المصدر ، ص463.

[165] نشر بعنوان شرح كتاب نهج البلاغة ، انظر بروكلمان تاريخ الأدب العربي ، جـ1 ، ص404 ، انظر أيضًا هوار في الأدب العربي ص253. ويظهر من عنوان الكتاب على أنه قصد به أن يكون كتابًا لنصوص في البلاغة والإنشاء.

من نماذج النثر العربي البليغ. والآخر مقامات بديع الزمان الهمذاني،[166] وهو أيضًا نموذج في السجع.

أما دروسه في التوحيد فلم تنتشر في ذلك الوقت، ولكنها كانت أساسًا لرسالة التوحيد التي نشرها فيما بعد، ونشر أيضًا كثيرًا من المقالات في الصحف.[167]

كان حماسه للإصلاح دائم الحركة لا يقر له قرار، وكان لا بد له من ميدان أوسع من تلك الدائرة الضيقة التي كان يعمل فيها، فلما سافر إلى سوريا وغيرها من أجزاء الإمبراطورية العثمانية، واتصل بكثير من الناس، ووقف بنفسه على أحوالهم، كتب في سنة 1886، رسالتين فيهما نفحات من تمحيصه وحسن منهجه، وصف فيهما الأحوال كما شاهدها وبين طرق علاجها.

أما الأولى: فكتبها إلى شيخ الإسلام في القسطنطينية عن لوائح الإصلاح والتعليم الديني. استهلها بتأكيد ولائه لخلافة آل عثمان، ثم بين أن جمهور العامة في كل ناحية من نواحي الدولة لم يبق عندهم من الدين إلا أسماء يذكرونها ولا يعتبرونها، وأن جهلهم بأصول الدين وفرائضه أضاع

---

[166] بديع الزمان الهمذانى توفي سنة 1008م ، انظر بروكلمان جـ1 ، ص 95 ، وهوار ص133.

[167] تاريخ جـ2 ، ص333 — 337. انظر مقالته عن الانتقاد في جريدة ثمرات الفنون.

أخلاقهم وأفسدها، ونهج لشيطان الأجانب سبيل الدخول إلى قلوب كثير من المسلمين، واستمالة أهوائهم عن طريق مدارسهم. والسبب في هذا الانحلال هو خلو المعاهد من التعليم الديني، فلا علاج له إلا بإصلاح التعليم.

ثم صنف الناس في طبقات ثلاث حسب أعمالهم ومعارفهم، واقترح لكل طائفة نوعًا من التعليم يتلاءم مع حاجاتها، وقدم هذه الاقتراحات إلى مجلس المعارف الذي ألفه السلطان لفحص حالة التعليم في أجزاء الدولة.[168]

أما رسالته الثانية، فهي لائحة في طريق إصلاح سوريا، رفعها إلى والي بيروت، ووصف فيها أحوال الطبقات والمذاهب ممثلة في سكان ولايات سوريا الثلاث، أي لبنان وبيروت وسوريا، وتكلم عن الدين، والتعليم، والنزعات السياسية، ثم كشف عن المضار التي ينتظر وقوعها من الإقبال على المدارس الأجنبية، واقتراح إنشاء مدارس صالحة، وزيادة العناية بالتعليم الديني.[169]

وبعد أن أقام نحو ثلاثة أعوام ونصف في بيروت، صدر عفو الخديوي توفيق باشا عنه، بشفاعة بعض أصحاب النفوذ

---

[168] تاريخ جـ2 ، ص338 ، و353.

[169] نفس المصدر ص354 و363 ، انظر أيضًا ما كتبه هورتن عن هذه الاقتراحات في جـ13 ، ص94 و95.

ومنهم اللورد كرومر،[170] فعاد في أواخر سنة 1888 إلى مصر،[171] وكان قد تزوج مرة ثانية في بيروت بعد وفاة زوجته الأولى.

ومنذ أن غادر مصر، قضى ستة أعوام في التنقل بين ربوع أوروبا، وشاهد مدنيتها في عناية واهتمام، تلك المدنية التي عرفها أولًا في دراسته لمصنفاتها الحديثة، والتي طالما تمنى لو عرفها بالذات ومن غير واسطة.[172] وسافر أيضًا إلى كثير من البلاد الإسلامية، وكشف عن أسباب ضعف المسلمين، وانطبعت في نفسه صور أيدتها رحلاته فيما بعد،[173] وبهذا استفاد من هذا الغياب الذي أكره عليه، وبخاصة في النواحي التي هيأته لزعامة أقوى نفوذًا، وأعظم سلطانًا، في ميدان الإصلاح الذي اختاره لنفسه.

يقول محمد رشيد رضا: «كان المنفي نكبة وشرًّا على جميع الذين نفوا، ما عدا الإمام فإنه كان عليه رحمة وبركة،

---

[170] المنار ج8، ص467، يقول اللورد كرومر: إن العفو صدر عنه تحت الضغط البريطاني مصر الحديثة ج2، ص 179.

[171] توافق سنة 1306 هجرية ، انظر المنار ج8، ص465.

[172] تاريخ ج3، ص84، يقول: إن الإنسان يرى في أكسفورد وكمبردج كيف تنهض الأمة إلى أوج العظمة. وفي الوصف الذي أرسله إلى المنار، ج6 و 7، عن زيارته لبالرمو وغيرها من جهات صقلية في طريقة من تونس والجزائر إلى بيروت ينهز الفرصة ليكتب ملاحظاته على الإصلاحات الاجتماعية، والأدبية، والدينية اللازمة للبلاد الإسلامية والتي استلمهما مما شاهده ولاحظه تاريخ (ج2، ص421 و458).

[173] المنار ج8، ص465.

فأضاف إلى إتمام علمه وتربيته، وكان سببًا في إذاعة علمه في كثير من البلاد».[174]

وقد تبين أن أسفاره إلى أوروبا، التي لم تكن بمشيئته واختياره أول الأمر، كانت عظيمة القيمة والفائدة، فعاود السفر إليها المرة بعد الأخرى، كلما شعر بأنه في حاجة إلى تجديد قواه. [175]

كان يقول: «ما من مرة أذهب إلى أوروبا، إلا ويتجدد عندي الأمل في تغيير حال المسلمين إلى خير منها».

ومع أن هذه الآمال قد وهنت عندما عاد إلى وطنه؛ لكثرة ما بقي من المصاعب، وما صادف من العقبات، ومن إصرار الناس، وتمسكهم بما هم فيه، وتهاونهم في الأخذ بغيره، إلا أنه يقول:

«ومع هذا فإني إذا عدت إلى أوروبا، وبقيت فيها شهرًا أو اثنين عادت إلى تلك الآمال، ورأيت أنه من السهل الوصول إلى ما كنت أعده مستحيلًا».[176]

---

[174] نفس المصدر ، ص416.

[175] نفس المصدر ، ص466.

[176] نفس المصدر ، ص466.

وهكذا كان الشيخ محمد عبده متأثرًا بطائفة من المؤثرات القوية، التي تجمعت خلال إقامته الطويلة خارج البلاد. عندما عاد إلى وطنه ليستقبل دوره ي خدمة دينه وبلاده.